مدرسة الأمير جمال الدين الاستدار

بقلم الاستاذ المرحوم محمود احمد

فى عدد شهر سبتمبر من (صحيفة التعليم الازهرى) كتبت مقدمة عامة لتاريخ المدرسة الاسلامية . ووعدت بتناول تاريخ المدارس الاسلامية . فوفاء بهذا الوعد قد اخترت لهذا العدد مدرسة « الأمير جمال الدين الاستدار »

كان القصران الثاريخيان المعروف أحدهما باسم القصر الكبير الشرقى . والآخر باسم القصر الصغير الغربى أشهر عمارات القاهرة . وكانت بينهما ساحة عظيمة صالحة لاستعراض ألوف مؤلفة من الجند وما يزال جانب من هذه الساحة معروفا إلى اليوم باسم « بين القصرين » بحى الجمالية . وكان بين الرحاب التى تحيط بالقصر الشرقى رحبة « باب العيد » نسبة إلى أحد أبواب ذلك القصر وهو باب « العيد » المشرف على تلك الرحبة التاريخية التى يشغل موضعها الآن رقعة من الأرض ممتدة من شارع حبس الرحبة غرباً إلى مسجد مغلطاى الجمالى بقصر الشوق شرقا وعرضها يمتد من عرب المبيضة شمالا إلى بداية شارع قصر الشوق جنوباً

فى الطرف الشمالى للحد الغربى لهذه الرحبة . أو على الناصية الشرقية لشارع « الفيكشية » اليوم وخط « الركن المحلق » بالأمس ، وفى يوم السبت الخامس من جمادى الأولى سنة ٨١٩ هـ بدأ الأمير جمال الدين الاستدار بانشاء هذه المدرسة حتى انتهى من عمارتها فى يوم الخميس الثالث من شهر رجب سنة ٨١١ هجرية

والاستدار — لقب لمن يتولى أمر أموال السلطان أو الأمير ، من إيراد وصرف . واليه يوكل أمر البيوت السلطانية وحاجياتها على اختلاف أنواعها وخدمها .

غير أن الأمير جمال الدين تمادى فى الاعتداء على سلطة الوزارة حتى حصرها كلها كبيرها وصغيرها فى يده وأصبح الآمر الناهى المتصرف فى رقاب العباد والأموال فاغتصب التباسر والضياع . وكان موضع مدرسته هذه قيسارية وطباق كلها وقف فوضع يده عليها ظالماً ثم هدمها وبنى المدرسة . أما ما لزمه من آلات وأحجار وأخشاب ورخام فقد جمعها جمعاً واغتصبها اغتصابا

وكان بمدرسة الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون التي كانت بالصوة (الطرف القبلي الغربي من شارع المعز) جبة من شبابيك من النحاس المكفت بالذهب والفضة وأبواب مصفحة بالنحاس البديع الصنعة المكفت ومن المصاحف والكتب، شيء كثير فاشترى كل هذا بسبعمائة دينار وكانت قيمتها عشرات أمثال ذلك، ثم نقلها إلى داره.

ومع أن تخطيط هذه المدرسة يماثل غيره من تخطيط المدارس التي بنيت في عهدها على الأقل فإن رخام وزرتها وحجارة سقوفها وقبوتها تشهد لمهندسها بسلامة الذوق والكفاية الفنية. والابداع في التخطيط. أما من الوجهة الهندسية فكان على شيء من الضعف في علم مقاومة المواد، فقد وجدنا جدرانا بأكملها أكبر سمكا من الأساسات التي يحملها فكان ذلك سببا في تصدعها قبل أوانها. وسقوط مئذنتها لتصدع قاعدتها وتفكك أحجارها.

ولقد أوقف عليها كثيراً من القرى للانفاق من ريعها عليها. إلا أن هذه الاوقاف كانت كالأدوات والآلات اغتصبت من الناس اغتصاباً وكان الصناع يعملون في بنائها بأبخس أجر، وشدة عسف. فكان جزاؤه أخيراً أن قبض عليه الملك الناصر فرج بن برقوق وقتله في جمادى الاولى سنة ٨١٢ هـ. ثم استولى على أمواله وأملاكه، فحسن جماعة للسلطان أن يهدم هذه المدرسة ويرغبوه في رخامها الجميل. وأن يسترد أوقافها لوفرة إيرادها فمال إلى ذلك الرأي وعمل على تنفيذه. لولا أن الرئيس فتح الله كاتب السر استشفع أن يهدم بيتاً لله تقام فيه الصلوات الخمس. وما زال بالسلطان يرغبه في بقائها على شريطة أن تنسب اليه وأن يمحى اسم جمال الدين منها حتى رضي بذلك وفوض إلى الرئيس أمرها. فدبره أحسن تدبير، ذلك أن موضع هذه المدرسة كان موقوفاً فاستبدل به جمال الدين أرضاً من أرض الدولة بالجيزة وحكم له قاضي القضاة كمال الدين بن العديم بصحة الاستبدال فهدم البناء الموقوف وهي موضعه هذه المدرسة وتسلم صاحب الوقف الارض المستبدل بها، إلى أن قتل جمال الدين وصودرت أمواله فكان مما صودر هذه الأرض

وهنا ادعى السلطان أن جمال الدين ابتاعها من بيت المال بغير إذن منه في بيعها. فأتى حينئذ محمد شمس الدين الدنى المالكي بأن بناء هذه المدرسة الذي أوقفه جمال الدين على

الارض التي لا يملكها بوجه صحيح لا يصح. وأنه باق على ملكه إلى موته ثم تنب شهود القيمة لتقويم المدرسة فقوموها باثني عشر الف دينار ذهباً وحرروا محضرا بهذا الثمن الذي دفع لأولاد جمال الدين على يد أحد القضاة الذي حرر عقد بيع بنائها للسلطان الذي عاد بدوره فاسترد منهم هذا المبلغ ثم أشهد على نفسه أنه أوقف أرض هذه المدرسة بعد استبدالها

وحكم حاكم حنفي بصحة الاستبدال وحكم كذلك بصحة وقف البناء الذي اشتراه بغير ثمن وحكم بصحة الوقف أيضاً . ثم طلب وقفية جمال الدين ومزقها . وجدد وقفية أخرى باسمه حرم فيها أولاد جمال الدين من فائض ريع الأعيان التي أوقفت على المدرسة وأبقى على غير ذلك من الرواتب الخاصة بخدمها . وأرباب المناصب فيها . أما فائض ريع الأوقاف فخص بعضه أولاده وباقيه ثربة أبيه الملك الظاهر برقوق بالمجاورين أو بقراءة المماليك . قد حكم بذلك القضاة الأربعة بعد ما كانوا قد حكموا بصحة وقفية جمال الدين ثم حكموا ببطلانها .

ولما تم له ذلك محا من هذه المدرسة اسم جمال الدين ورتبه وكتب اسم الناصر فرج بدائر صحنها من أعلاه وعلى قناديلها وبسطها وسقوفها . وصارت هذه المدرسة تعرف بالناصرية بعد ما كان يقال لها الجمالية . ولم تزل على ذلك حتى قتل الناصر فرج . وقدم الأمير (شيخ) إلى القاهرة وتقلد زمام الحكم فتوصل كل من شمس الدين محمد أخي جمال الدين وزوج ابنته إلى شرف الدين المجمي استدار الأمير (شيخ) حتى أحضر قاضي القضاة وحكم الصدر على قاضي القضاة الحنفي برد أوقاف جمال الدين إلى ورثته من غير استيفاء الشروط في الحكم . بل تهود فيه وجازف لأسباب أخصها عناية الأمير (شيخ) بجمال الدين الاستدار لخدمة سابقة أداها إليه . فكانت سبباً في اتهامه بمالأته على السلطان فرج الذي قبض عليه

كذلك سعى قاضي القضاة هذا بمساعدة زملائه حتى أعاد شمس الدين إلى مشيخة خانكاة بيبرس (التي أمام الدرب الأصفر اليوم) وغيرها من الوظائف التي خلع منها عند ما قبض السلطان على أخيه وهكذا استولى شمس الدين وصهره شرف الدين على مال كثير كان قد جمع للمدرسة من فائض ريعها . ثم تورطوا إلى حد أنهم أقدموا على تلفيق وقفية أخرى أثبتوا فيها أن جمال الدين اشترط النظر على المدرسة لأخيه شمس الدين المذكور وذريته وشهد بذلك قوم استكرهوا فأقروا . وقد صدق على هذه الوقفية قاضي القضاة صدر الدين ابن الأدمي وتبعه بقية القضاة فاستمر الحال على هذا البهتان والإفك زمناً إلى أن ثار بعض صوفية هذه المدرسة وحرر محضراً بأن النظر عليها إنما هو لكاتب السر . فلما ثبت ذلك نزعت يد أخي جمال الدين عن التصرف في المدرسة فتولى نظرها ناصر الدين محمد بن البارزي كاتب السر واستمر الأمر على هذا المنوال فكانت قصة هذه المدرسة من أعجب الأمور في تناقض القضاة وحكمهم بإبطال ما صححوه ثم حكمهم بتصحيح ما أبطلوه ، كل ذلك ميلا مع الجاه وحرصاً على بقاء رياستهم — سنكتب شهادتهم ويسألون

محمود احمد المهندس
المدير الفني للجنة الآثار العربية